المعطيات الدينية والاجتماعية لزيارة الأربعين

أ. م. د. خليل خلف بشير

جامعة البصرة – كلية الآداب

الملخص

مرّت على ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء قرون عديدة، ونحن نشاهدها كل يوم تزداد رسوخاً وشمولية حتى أصبحت قضية عالمية فرضت نفسها بقوة على الصُعُد كافة، والمسألة ليست صدفة بل هي قضية تسير وفق تخطيط إلهي دقيق، فالإرادة الربانية كانت ومازالت ترعى هذه الثورة بكل تفاصيلها، واتخذت تلك الرعاية الربانية لصالح القضية الحسينية المباركة من خلال ربط الجماهير بالحسين وثورته بواسطة غرس الحب الحسيني في القلوب، وتسخير الطاقات لصالح القضية الحسينية فضلاً عن دفع كافة الأخطار التي أحاطت بها، وقد رأيت أن أبحث في زيارة الأربعين – تلك الزيارة التي أقضت مضاجع الغرب وأذنابهم – مفهومها وأبعادها ومعطياتها.

وقد تجلت معطيات هذه الزيارة المليونية المباركة والمؤيدة إلهياً من خلال الآتي:

١. ثقافة الولاء والبراءة: وتُعدّ ثقافة الولاء والبراءة من أعظم ثقافات عاشوراء وكربلاء، وهي ثقافة أساسية في بناء الشخصية الإسلامية فلا نجد في غير الإسلام ثقافة بمثل قوتها ومتانتها وإحكامها، وهذه الثقافة مبثوثة في زيارات أهل البيت عليهم السلام عامة وفي زيارات الإمام الحسين عليه السلام خاصة على أن هذه الثقافة هي ثقافة توحيدية منحدرة عن أصل التوحيد، وتأتي في امتداده الطولي، وكل ولاء مشروع يأتي في امتداد الولاء له سبحانه.
٢. استعراض القوى المؤمنة: يقرّ المراقبون الدوليون المترصدون بأنّ هذه الزيارة المليونية هي أكبر معهد ومعسكر لتدريب النفس البشرية على التضحية والفداء والعطاء بحيث لو أرادت أي دولة كبرى أن تعبئ شعبها، ولو لشرائح قليلة استعداداً لحرب أو حرب طوارئ فلا تستطيع أن تجند إلا القلة القليلة وبالترغيب والترهيب في حين أننا نجد الملايين من البشر في زيارة الأربعين يزحفون بشكل طوعي.
٣. العمل التطوعي: راقب الغربيون هذه الظاهرة والمظاهرة الحسينية عبر الأقمار الاصطناعية لمدة أسبوع أو أكثر وبث مباشر فانبهروا واعترفوا بأنّ الشيعة أكثر تحضراً بالمقايسة مع الأحداث التي تقع في نيويورك أو باريس.
٤. الإحساس العبادي الطويل: تتيح ممارسة زيارة الأربعين فرصة الشعور العبادي المتواصل مَثَلُها مَثَلُ الحج،

وصيام رمضان إذ تنتظم هذه الممارسات ضمن شوط عبادي طويل وتتآزر نشاطاتها لتمنح الممارس وعياً وإحساساً وتفاعلاً عبادياً مستمراً فالزائر الماشي الى الإمام الحسين﵇ يشعر بالحضور القلبي والعقلي، ويعيش حالة من الوعي المستمر لما يقوم به، فقد تعهدت له النصوص الشرعية بأن يُثاب على كل خطوة يخطوها في طريق أبي عبد الله الحسين﵇؛ لهذا تجد الجميع يحثّ الخطى دونما كلل وتعب للاستزادة من اقتطاف الأجر الذي ألمحت إليه النصوص الشرعية.

٥. الراحة النفسية والعقلية: تعد ظاهرة المشي في أثناء زيارة الأربعين فرصة حقيقية لمعالجة الأمراض التي أشرنا إليها، ولاسيما الأمراض النفسية مثل الكآبة والخوف، ويتميز علاج المشي في هذه الزيارة بعناصر لا تتوفر خارج نطاقه إذ يؤدي السلوك الجمعي دوراً ملحوظاً في فاعلية العلاج فلا شك أن مشاركتك للملايين من الناس في أداء هذه الممارسة سوف تختلف طبيعتها ونتائجها عن ممارستك للمشي بنحو فردي ومنعزل عن الآخرين فالمشي ضمن هذه المسيرة المليونية يزيد من ألفة الممارسة، ويمنح الشعور بالأمن، ويرفع من معنويات الممارس ببذل الجهد المضاعف فضلاً عن معطيات الزخم الجماهيري وانعكاساته على الصحة النفسية إذ تعزز مشاركة المشي مع الآخرين شعور الانتماء الاجتماعي، والألفة، والقرب من الآخرين بدلاً من الانطواء على الذات، والصراع مع مشاعر الوحدة والعزلة والوحشة، وعادة ما ينجم عن مشاركة المشي مع ذلك الجمهور الكبير صداقات حميمة، وحوارات قصيرة تترك آثاراً طيبة في النفس ما ينعكس على الفرد بأحاسيس الرضا والسعادة.

Religious And Social Results For The Arbaeen Pilgrimage

Prof. Dr. Khalil Khalaf Bashir

University of Basra - Faculty of Literatures

Abstract

It's had been many centuries since the revolution of Hussein "pbuh" in Karbala, as we see it becomes every day even more entrenched and comprehensive so it has become a global issue that strongly imposed itself at all levels. However, this wasn't a matter of coincidence, but an issue that goes according to an accurate divine plan. The heavenly will has been and still takes care of this revolution in all its details, therefore, this heavenly will has pushed the blessed Husseiniya issue even further by linking the masses with Al-Imam Al-Hussein and his revolution by instilling his love in the people's hearts , and harnessing the energies in favor of the Husseiniya issue as well as for repelling all the dangers surrounding it.

I saw that it's necessary to look into the concept and dimensions of the Arbaeen pilgrimage that shocked the West and its agents, as its data resulted in the walk made by millions of pilgrims from all around the world through the following milestones:

1. The culture of loyalty and repudiation: This culture is one of the greatest cultures of Ashura and Karbala, it is a basic culture in the construction of the Islamic personality, there is no culture but in Islam with such a strength, resistance and rigor. This culture is built within the pilgrimages of Imam Hussein "pbuh" and other Ahlul-Bayt "peace be upon them", in addition that this culture is a unified culture descended from the origin of monotheism, and comes in its longitudinal extension, and in every legitimate project comes in the extension of allegiance to Allah Almighty.

2. Review of believing powers: International observers acknowledge that this million-person pilgrimage is the largest institute and camp to train the human soul for sacrifice, redemption and giving, so that if any major country wanted to mobilize its people, even among few segments in preparation for a war, it can recruit only a few by intimidation or greed, while in the Arbaeen, we find millions of people trekking toward Karbala voluntarily.

3. Volunteerism: Westerners have observed this phenomenon via satellites for a week or more, as they were impressed and forced to admit that Shiites are more urbanized by comparison with events occurred in New York or Paris.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد: فقد مرّت على ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء قرون عديدة، ونحن نشاهدها كل يوم تزداد رسوخاً وشمولية حتى أصبحت قضية عالمية فرضت نفسها بقوة على الصُعُد كافة، والمسألة ليست صدفة بل هي قضية تسير وفق تخطيط إلهي دقيق، فالإرادة الربانية كانت ومازالت ترعى هذه الثورة بكل تفاصيلها، واتخذت تلك الرعاية الربانية لصالح القضية الحسينية المباركة من خلال ربط الجماهير بالحسين وثورته بواسطة غرس الحب الحسيني في القلوب، وتسخير الطاقات لصالح القضية الحسينية فضلاً عن دفع كافة الأخطار التي أحاطت بها.

وقد رأيت أن أبحث في زيارة الأربعين – تلك الزيارة التي أقضت مضاجع الغرب وأذنابهم – مفهومها وأبعادها ومعطياتها، نسأل الله أن يوفقنا فيه ويجعله في ميزان حسناتنا يوم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء/ ٨٨-٨٩).

المدخل:

زيارة الأربعين مفهومها، وأبعادها

لعل سر اختصاص المشي بزيارة الحسين عليه السلام يوم الأربعين يعود الى ثلاثة أمور هي[١]:

١. إنّ أول من سنّ هذه السُّنة الحسنة هو الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري، والناس يزورون الحسين عليه السلام في هذا اليوم تأسياً بهذا الصحابي الجليل، ((ولعل العلة في استحباب الزيارة في هذا اليوم هو أن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه وصل في مثل هذا اليوم من المدينة إلى قبره الشريف وزاره بالزيارة التي مر ذكرها، فكان أول من زاره من الإنس ظاهراً – فلذلك يستحب التأسي به))[٢]، وسميت بزيارة الأربعين ((لأنّ وقتها يوم العشرين من صفر، وذلك لأربعين يوماً من مقتل الحسين عليه السلام))[٣].

٢. حثّ الأئمة عليهم السلام على الزيارة في هذا اليوم، وجعلوها من علامات المؤمن. قال الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ((علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم))[٤].

٣. في هذا اليوم التقى الإمام زين العابدين عليه السلام بالصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري بعد رجوع آل البيت من الشام الى كربلاء ولاقوا ما لاقوه من العذاب والعناء والظلم الشديد فالمواسون إنما يزورون الإمام الحسين عليه السلام في هذا اليوم مشياً على الأقدام مواساة لما جرى على عيال الحسين عليه السلام.

وقد أثبتت تلك الملايين في توجهها الصادق صدق المقولة الشهيرة (الإسلام محمدي الوجود، وحسيني البقاء)، وهي عبارة حبّ وعاطفة أطلقها عشاق ومحبو الإمام الحسين عليه السلام، فقد كانت المسيرة الاسلامية بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام قد اتخذت طابعاً وراثياً وانحرفت عن مبادئها التي أراد لها الله

سبحانه تعالى، وتوالى على رقاب المسلمين أراذل الخلق وأشرارهم، بيد إن الإمام الحسين عليه السلام بخروجه وثورته المباركة أثبت حيوية الإسلام وتصديه للظلم ورفضه للطاغوت، ولعل خروجه عليه السلام في الثامن من ذي الحجة وخلعه ثياب الإحرام للتوجه الى الجهاد ونصرة الحق أبلغ دلالة على أهمية النهج الحسيني فالحسين في ثورته أصرّ على القيم المحمدية في حين أصر أعداء الاسلام على النهج الطاغوتي[٥].

وقد تفردت زيارة الإمام الحسين عليه السلام بالتنوع والتعدد والكثرة التي لا شبيه لها مقارنة بزيارات المعصومين عليهم السلام جميعاً، على أنّ من الزيارات الموسمية التي يصل عدد الوافدين فيها الى الملايين مثل زيارة عاشوراء، وزيارة الأربعين، وزيارة الأول من رجب، وزيارة النصف من رجب، وزيارة النصف من شعبان، وزيارة ليالي القدر في شهر رمضان، وزيارة عيد الفطر، وزيارة عرفة، وزيارة عيد الأضحى فضلاً عن الزيارات العامة[٦]، ولعل لزيارة الأربعين خصوصية في كثرة الوافدين من مختلف بقاع العالم لذا ينظر المراقبون الدوليون الى هذا المهرجان العبادي الروحي التعبوي على وجل وخوف؛ لأن هذه الوفود والقدرة في التعبئة المليونية والسنوية لا تمتلكها أي دولة عظمى ولا وسطى ولا أخرى ولا الإسلامية بل حتى النظم الشيعية لا تمتلك هذه القدرة، وإنما الذي يمتلك هذه القدرة والوميض والمحرك هو الإمام الحسين عليه السلام بشكل طوعي بلا ترغيب ولا ترهيب بل فيه التضحية بالنفس والمال لاسيما والزائرون المشاة في تحدٍّ خطير تجاه الإرهاب الحاقد الأعمى البغيض[٧].

فالإمام الحسين عليه السلام الذي استشهد قبل ما يقرب من أربعة عشر قرناً مازال مسيطراً على النظم البشرية والمجتمع البشري أقوى من سيطرة أي نظام في العالم إذ يخرج زمام الأمر من يد الدولة، ويكون بيد الحسين عليه السلام، وهو ما قاله بعض المسؤولين من أنّ الحسين عليه السلام يحكم العراق خلال زيارة الأربعين، ولو أُطلق الفضاء للشعوب الأخرى لرأيناهم ينجذبون وينقادون للحسين وما تمليه مبادئ الحسين وقيمه والجو التربوي لسيد الشهداء لعاشت البشرية في الجنان، لأنّ الحسين عليه السلام يحكم القلوب الى الصفاء، وليست البشرية وحدها تنقاد له بل حتى الملائكة[٨] فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((...وليس من ملك ولا نبي في السماوات ولا في الأرض إلا ويسألون اللهَّ أن يأذن لهم في زيارة قبر الحسين عليه السلام ففوج ينزل وفوج يعرج))[٩].

ولعل أبرز ما يظهر العظمة والجلال في الشعائر الحسينية بعدان هما:

١. **البعد العقائدي**: ذلك لأنّ الشعائر الحسينية محمدية متصلة بسيد النبيين لقوله صلى الله عليه وآله ((حسين مني وأنا من حسين أحبّ الله من أحب حسيناً))[١٠]، والاتصال بالرسول منطق قرآني إذ يقول الله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[١١]، وبذا تكون الشعائر الحسينية محمدية إلهية، وتمثل فعلاً استراتيجياً يهدف الى توحيد القلوب في سياق عولمة توحيد الله. قال تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[١٢].

٢. **البعد العاطفي أو الوجداني**: وهو بعد لا ينفك عن حركة القلب في خط العقل، وهذه الحركة العقلانية هي العقيدة، وهي الحب. قال الإمام الباقر ((وهل الدين إلا الحب وهل الدين إلا

الحب قال اللهَّ تعالى ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[١٣] وقال ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[١٤] وقال ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[١٥]))[١٦].

ويتجلى هذان البعدان (العقائدي والعاطفي أو الوجداني) في الشعائر الحسينية بالتنقل من الذكر والفكر، والحرارة في القلب، والمعرفة الى اللهج، والدمع، والنشيج والنحيب، والجزع بلا حدود، والتوثب في ساحات (يا ليتنا كنّا معك) وصولاً الى لقاء الله بتاج الشهادة، ووسام السعادة[١٧].

معطيات زيارة الأربعين

يمكن أن نقف على أبرز معطيات زيارة الأربعين على النحو الآتي:

أولاً: الولاء والبراءة: إذ تتقابل هاتان اللفظتان في أكثر زيارات الإمام الحسين عليه السلام، ومن ذلك زيارة الأربعين في قوله ((...، اللهم! إني أُشهدك أني ولي لمن والاه وعدو لمن عـاداه،...))[١٨]، وهو تقابل يفصح بشكل واضح وصريح عن ((موقف المؤمن في ساحة الصراع التي امتدت عبر العصور الى اليوم – ولاء لآل رسول الله وبراءة وعداء لأعدائهم، وليس بعد هذا الوضوح وضوح))[١٩].

ولعل مشاهد الولاء في زيارة الأربعين تتحدد في ثلاثة هي[٢٠]:

١. التسليم: ويمثل السلام والأمن والمحبة، والثقة المطلقة بالله، والموقف تجاه محور الولاية في قوله ((السلام على ولي الله وحبيبه، السلام على خليل الله ونجيبه، السلام على صفي الله وابن صفيه، السلام على الحسين المظلوم الشهيد، السلام على أسير الكربات وقتيل العبرات))[٢١].

٢. الشهادة بأنّ الإمام الحسين هو ولي الله وابن وليه، وصفيه وابن صفيه، وأنه الفائز بالكرامة والسعادة وطيب الولادة، وأنه سيد من السادة وقائد من القادة وذائد من الذادة، وأنه مُعطى مواريث الأنبياء ومجعولٌ حجة على الخلق في قوله ((اللهم ! إني أشهد أنه وليك وابن وليك وصفيك وابن صفيك الفائز بكرامتك أكرمته بالشهادة وحبوته بالسعادة واجتبيته بطيب الولادة وجعلته سيداً من السادة وقائداً من القادة وذائداً من الذادة وأعطيته مواريث الأنبياء وجعلته حجة على خلقك من الأوصياء))[٢٢].

٣. الموقف: في قوله ((وقلبي لقلبكم سلم وأمري لأمركم متبع ونصرتي لكم معدة حتى يأذن الله لكم، فمعكم معكم لا مع عدوكم...))[٢٣].

وضمن هذه المراحل الثلاث يعبّر الزائر عن ولائه للإمام الحسين عليه السلام في المعركة الكبرى التي وقف فيها سيد الشهداء في مواجهة الطاغية يزيد ينطلق فيها من جذور هذه المعركة التاريخية الى يومنا هذا.

وإذا كانت ممارسة البراءة من المشركين تمثل إحدى ممارسات الحج المهمة، لقوله تعالى ﴿أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ الله بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة/ ٣) فإنّ ممارسة زيارة الأربعين تمثل أكبر تظاهرة إسلامية

للتعبير عن البراءة من المشركين والظالمين، فنهضة الإمام الحسين عليه السلام إعلان رافض للشرك والمشركين، وتحدٍّ واضح للظلم والظالمين[٢٤]، ويمكن تلمس مظاهر البراءة واللعن في ألفاظ زيارة الأربعين الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: ((... اللهم! فالعنهم لعناً وبيلاً وعذّبهم عذاباً أليماً،... فلعن الله من قتلك ولعن الله من ظلمك ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به...))[٢٥].

ولعل من لُعِن في الزيارة ثلاث أمم وطوائف هي[٢٦]:

١. الطائفة الأولى التي باشرت قتال الإمام الحسين عليه السلام في قوله ((... فلعن الله من قتلك)).
٢. والطائفة الثانية في قوله ((...ولعن الله من ظلمك)) التي ظلمت الإمام الحسين عليه السلام وجارت عليه، ومكّنت منه فهي طائفة شملت كل أولئك الذين ظلموه وجاروا عليه بأية طريقة كانت.
٣. والطائفة الثالثة (الشريحة الراضية) في قوله ((.. ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به...))، وهي طائفة سمعت استنصار الإمام الحسين عليه السلام فآثرت العافية، ولم تنصره فهي طائفة سامعة لاستنصاره راضية بقتله لذا هي شريكة في قتله؛ لأنها رضت بفعل يزيد في قتله للحسين عليه السلام.

وتُعدّ ثقافة الولاء والبراءة من أعظم ثقافات عاشوراء وكربلاء، وهي ثقافة أساسية في بناء الشخصية الإسلامية فلا نجد في غير الإسلام ثقافة بمثل قوتها ومتانتها وإحكامها، وهذه الثقافة مبثوثة في زيارات أهل البيت عليهم السلام عامة وفي زيارات الإمام الحسين عليه السلام خاصة على ان هذه الثقافة هي ثقافة توحيدية منحدرة عن أصل التوحيد، وتأتي في امتداده الطولي، وكل ولاء مشروع يأتي في امتداد الولاء له سبحانه. قال تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة/ ٥٥) على أنّ كل المقولات الثقافية الداخلة في الولاء والبراءة من مقولة التوحيد فهي جميعاً لله تعالى فالحب مثلاً من مقولات الولاء، ولا ولاء من دون الحب، ولكن لا يكون مشروعاً مقبولاً إلا إذا كان لله وفي الله، فضلاً عن ذلك إن للولاء وجهاً آخر لا يفارقه قط، وهو البراءة فأينما تحقق الولاء تحققت البراءة بإزائه: البراءة من أعداء الله وأعداء رسوله وأوليائه، وهما وجهان لقضية واحدة، والولاء الذي لا يقترن بالبراءة لعمري هو الولاء الساذج السطحي غير المقاوم[٢٧].

إن ثقافة الولاء والبراءة تعمق ارتباط الإنسان بالله تعالى وأنبيائه ورسله وأوصيائه، ومن ذلك تعميق ثقافتنا برسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وبقدر ما يتم في نفوس المؤمنين تعميق الولاء في هذه الزيارات، يتعمق بالمقابل النفور والكراهية والعداء للظالمين والجبابرة والطغاة، والبراءة منهم ومقاطعتهم والتشهير بهم، والتمرد عليهم، ولعل استشعار الطغاة والجبابرة الخطر والتهديد لسلطانهم من ناحية الحشود الهائلة الزائرة، ومن ناحية مجالس العزاء والنياحة لم يأتِ من فراغ بل يجدون في القيم التي تختزنها القضية الحسينية ومفاهيم الولاء والبراءة التي تحملها نصوص الزيارات توعية سياسية واسعة وحركية للجمهور المستضعف المضطهد المغلوب على أمره الذي يجد في

هذه القيم والمفاهيم الوعي المطلوب الذي من شأنه أن يمكنه من اتخاذ الموقف والقرار، والخروج من نفوذ الاستكبار والقهر والاستبداد السياسي للحكام الظالمين، وإزالة جدار الرعب الذي يحجز الجمهور عن المطالبة بحقوقه وعن حقه في تقرير مصيره، وهذا ما يخافه السلاطين والملوك والرؤساء والأمراء من الزيارات الحسينية ومجالس العزاء والنياحة التي تقام في مختلف بقاع العالم إحياء لذكرى سيد الشهداء[٢٨].

ثانياً: استعراض القوى المؤمنة: المعروف أن الكثير من الدول والأحزاب والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية قد اعتادت أن تظهر إمكاناتها وقدراتها البشرية والمادية بواسطة استعراض جماهيري أو بشكل نشاطات عسكرية أو صناعية أو غير ذلك، فيبذل العاملون على تنظيم مثل هذه الاستعراضات الكثير من المال والوقت والجهد حرصاً منهم على إيصال رسائل الى الأصدقاء والأعداء من أجل التعريف والإعلان وتعزيز الثقة في نفوس أتباعهم والتهديد غير المباشر لمناوئيهم أو لمجرد الترويح والدعاية لمنتجاتهم الحديثة، والمؤمنون معنيون – كغيرهم من القوى الموجودة على الأرض – في إظهار قوتهم البشرية وطاقاتهم المعنوية عبر ممارساتهم المنسجمة مع الشريعة الإسلامية، وقد أسست الشريعة الإسلامية بنفسها لبعض الممارسات العبادية مثل: الحج، وصلاة الجمعة والجماعة، وممارسة الزيارة في أوقات خاصة، ومن بين هذه الممارسات زيارة الأربعين التي تستبطن هذا الدور بإيصال رسالتها الهادفة الى إظهار إمكانات المؤمنين وعشاق السلام من غير المسلمين المادية والمعنوية حيث نلمس تزايداً ملحوظاً في أعداد الزائرين فمثلاً في سنة ٢٠١٤ بلغ العدد ١٠ ملايين زائر بينهم ٥ ملايين من خارج العراق، ويتصاعد العدد بشكل مستمر وازدياد مطّرد مما يشكّل استعراضاً واضحاً للقوى المؤمنة من أتباع أهل البيت عليهم السلام ومن يشاركهم الاهتمام بمبادئ هذه الممارسة المباركة فقد وصفت ال بي بي سي البريطانية في عام ٢٠١٣م هذا الحشد المليوني المبارك بـــ (التنين الأسود) الممتد من البصرة الى كربلاء، وذلك لارتداء المشاركين اللباس الأسود حزناً على سيد الشهداء ولاتصال حركة السير دون ترك فواصل مكانية ما يرسم لوحة جماهيرية متلاحمة تعجز كل وسائل التصوير والفن عن تجسيدها وتمثيلها بما هي عليه حتى علّق أحد الغربيين على إحدى شبكات التواصل الاجتماعي بالقول: ((لو قُدِّر لهذا القائد – يقصد الإمام الحسين– أن ينهض بهذه الجماهير المليونية المتحمسة لكان قد احتلّ العالم كله))[٢٩]؛ ولهذا يقرّ المراقبون الدوليون المترصدون بأنّ هذه الزيارة المليونية هي أكبر معهد ومعسكر لتدريب النفس البشرية على التضحية والفداء والعطاء بحيث لو أرادت أي دولة كبرى أن تعبئ شعبها، ولو لشرائح قليلة استعداداً لحرب أو حرب طوارئ فلا تستطيع أن تجند إلا القلة القليلة وبالترغيب والترهيب في حين أننا نجد الملايين من البشر في زيارة الأربعين يزحفون بشكل طوعي ومتواصل ومتزايد[٣٠].

ثالثاً: العمل التطوعي: يحتل العمل التطوعي في البلدان المتطورة حيزاً كبيراً، ولا يقل الاهتمام به عن اهتمامهم بالعمل الرسمي بحيث يترتب على

إسهامات المتطوعين مكاسب اقتصادية واجتماعية وصحية ضخمة بيد أنه في زيارة الأربعين عمل صادر عن دوافع ذاتية دون أن تكون هناك يد للمحفزات الخارجية يدفعهم حبهم المقدس لسيد الشهداء فكلهم يتنافسون على بذل أقصى الجهد من أجل حب الحسين، والهدف هو نيل رضا الله فليس هناك مكافئات، ولا شهادات تقديرية، ولا إعفاءات من بعض الواجبات التي تحفز المتطوعين لخدمة سيد الشهداء غير الاعتبارات الأخروية المذكورة في روايات أهل البيت عليهم السلام[٣١].

ويروى أنّ مسؤول القوات المسلحة للشرق الأوسط للإدارة الأمريكية راقب هذه الظاهرة والمظاهرة الحسينية عبر الأقمار الاصطناعية لمدة أسبوع أو أكثر وبث مباشر فانبهر قائلاً: أنا أعترف أنتم – الشيعة – أكثر تحضراً بالمقايسة مع الأحداث التي تقع في نيويورك أو باريس[٣٢].

رابعاً: الإحساس العبادي الطويل: تتيح ممارسة زيارة الأربعين فرصة الشعور العبادي المتواصل مَثَلُها مَثَلُ الحج، وصيام شهر رمضان إذ تنتظم هذه الممارسات ضمن شوط عبادي طويل وتتآزر نشاطاتها لتمنح الممارس وعياً وإحساساً وتفاعلاً عبادياً مستمراً فالزائر الماشي الى الإمام الحسين عليه السلام يشعر بالحضور القلبي والعقلي، ويعيش حالة من الوعي المستمر لما يقوم فيه فقد تعهدت له النصوص الشرعية بأن يُثاب على كل خطوة يخطوها في طريق أبي عبد الله الحسين عليه السلام؛ لهذا تجد الجميع يحثّ الخطى دونما كلل وتعب للاستزادة من اقتطاف الأجر الذي ألمحت إليه النصوص الشرعية[٣٣] من ذلك مثلاً الرواية الواردة عن الحسين بن ثوير بن أبي فاختة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ((يا حسين من خرج من منزله يريد زيارة قبر الحسين بن علي عليهما السلام إن كان ماشياً كتب الله له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة، حتى إذا صار في الحائر كتبه الله من المفلحين المنجحين، حتى إذا قضى مناسكه كتبه الله من الفائزين، حتى إذا أراد الانصراف أتاه ملك فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقرؤك السلام ويقول لك: استأنف العمل فقد غفر لك ما مضى))[٣٤].

خامساً: الراحة النفسية والعقلية: إنّ ظاهرة المشي حافلة بالعديد من العناصر النفسية الإيجابية التي يمكن الإفادة منها في علاج الأمراض النفسية الصعبة إذ تقي من أمراض القلب والأوعية الدموية، ومرض السكر، والألزهايمر، والسمنة، وقد أثبتت الدراسات النفسية تأثير المشي بنحو خاص على اعتدال المزاج، ومعالجة أمراض الكآبة، وأعصاب الخوف من خلال مساعدة الجسم على توليد بعض العناصر الكيميائية المعروفة بالناقلات العصبية التي ينتج عنها الشعور بالراحة والفرح؛ لذا تعد ظاهرة المشي في أثناء زيارة الأربعين فرصة حقيقية لمعالجة الأمراض التي أشرنا إليها، ولاسيما الأمراض النفسية مثل الكآبة والخوف، ويتميز علاج المشي في هذه الزيارة بعناصر لا تتوفر خارج نطاقه إذ يؤدي السلوك الجمعي دوراً ملحوظاً في فاعلية العلاج فلا شك أن مشاركتك للملايين من الناس في أداء هذه الممارسة سوف تختلف طبيعتها ونتائجها عن ممارستك للمشي بنحو فردي ومنعزل عن الآخرين فالمشي ضمن هذه المسيرة المليونية يزيد من ألفة

الممارسة، ويمنح الشعور بالأمن، ويرفع من معنويات الممارس ببذل الجهد المضاعف فضلاً عن معطيات الزخم الجماهيري وانعكاساته على الصحة النفسية إذ تعزز مشاركة المشي مع الآخرين شعور الانتماء الاجتماعي، والألفة، والقرب من الآخرين بدلاً من الانطواء على الذات، والصراع مع مشاعر الوحدة والعزلة والوحشة، وعادة ما ينجم عن مشاركة المشي مع ذلك الجمهور الكبير صداقات حميمة، وحوارات قصيرة تترك آثاراً طيبة في النفس ما ينعكس على الفرد بأحاسيس الرضا والسعادة[٣٥].

الخاتمة

تجلّت في هذا البحث معطيات هذه الزيارة المليونية المباركة والمؤيدة إلهياً من خلال الآتي:

١. ثقافة الولاء والبراءة: وتُعدّ ثقافة الولاء والبراءة من أعظم ثقافات عاشوراء وكربلاء، وهي ثقافة أساسية في بناء الشخصية الإسلامية فلا نجد في غير الإسلام ثقافة بمثل قوتها ومتانتها وإحكامها، وهذه الثقافة مبثوثة في زيارات أهل البيت عليهم السلام عامة وفي زيارات الإمام الحسين عليه السلام خاصة، على ان هذه الثقافة هي ثقافة توحيدية منحدرة عن أصل التوحيد، وتأتي في امتداده الطولي، وكل ولاء مشروع يأتي في امتداد الولاء له سبحانه.

٢. استعراض القوى المؤمنة: يقرّ المراقبون الدوليون المترصدون بأنّ هذه الزيارة المليونية هي أكبر معهد ومعسكر لتدريب النفس البشرية على التضحية والفداء والعطاء بحيث لو أرادت أي دولة كبرى أن تعبئ شعبها، ولو لشرائح قليلة استعداداً لحرب أو حرب طوارئ فلا تستطيع أن تجند إلا القلة القليلة وبالترغيب والترهيب في حين في زيارة الأربعين نجد الملايين من البشر يزحفون بشكل طوعي.

٣. العمل التطوعي: راقب هذه الظاهرة والمظاهرة الحسينية الغربيون عبر الأقمار الاصطناعية لمدة أسبوع أو أكثر وبث مباشر فانبهروا واعترفوا بأنّ الشيعة أكثر تحضراً بالمقايسة مع الأحداث التي تقع في نيويورك أو باريس.

٤. الإحساس العبادي الطويل: تتيح ممارسة زيارة الأربعين فرصة الشعور العبادي المتواصل مثلها مثل الحج، وصيام رمضان إذ تنتظم هذه الممارسات ضمن شوط عبادي طويل وتتآزر نشاطاتها لتمنح الممارس وعياً وإحساساً وتفاعلاً عبادياً مستمراً فالزائر الماشي الى الإمام الحسين عليه السلام يشعر بالحضور القلبي والعقلي، ويعيش حالة من الوعي المستمر لما يقوم فيه فقد تعهدت له النصوص الشرعية بأن يُثاب على كل خطوة يخطوها في طريق أبي عبد الله الحسين عليه السلام؛ لهذا تجد الجميع يحثّ الخطى دونما كلل وتعب للاستزادة من اقتطاف الأجر الذي ألمعت إليه النصوص الشرعية.

٥. الراحة النفسية والعقلية: تعد ظاهرة المشي في أثناء زيارة الأربعين فرصة حقيقية لمعالجة الأمراض التي أشرنا إليها، ولاسيما الأمراض النفسية مثل الكآبة والخوف، ويتميز علاج المشي في هذه الزيارة بعناصر لا تتوفر خارج نطاقه إذ يؤدي السلوك الجمعي دوراً ملحوظاً في فاعلية العلاج فلا شك أن مشاركتك للملايين من الناس في أداء هذه الممارسة سوف تختلف

طبيعتها ونتائجها عن ممارستك للمشي بنحو فردي ومنعزل عن الآخرين فالمشي ضمن هذه المسيرة المليونية يزيد من ألفة الممارسة، ويمنح الشعور بالأمن، ويرفع من معنويات الممارس ببذل الجهد المضاعف فضلاً عن معطيات الزخم الجماهيري وانعكاساته على الصحة النفسية إذ تعزز مشاركة المشي مع الآخرين شعور الانتماء الاجتماعي، والألفة، والقرب من الآخرين بدلاً من الانطواء على الذات، والصراع مع مشاعر الوحدة والعزلة والوحشة، وعادة ما ينجم عن مشاركة المشي مع ذلك الجمهور الكبير صداقات حميمة، وحوارات قصيرة تترك آثاراً طيبة في النفس ما ينعكس على الفرد بأحاسيس الرضا والسعادة.

الهوامش

(١) ينظر: المشي لزيارة الإمام الحسين عليه السلام وباقي الأئمة – دراسة في ضوء الموازين الفقهية، الشيخ حبيب عبد الله الساعدي، مجلة الإصلاح الحسيني، السنة الثانية، العدد ٦، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٢) بحار الأنوار/ المجلسي ٩٨/ ٣٣٤.

(٣) المصدر نفسه ٩/ ٣٠١.

(٤) الحدائق الناضرة / المحقق البحراني ٨/ ١٦٧.

(٥) زيارة الأربعين التاريخية: الإسلام محمدي الوجود حسيني البقاء، سعد خيون العبادي،

bic/ashuraa/8742 m.annabaa.org.

(٦) ينظر: ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت – مقاربات تأملية في اتجاه فهم الآخر/ محمد عبد الرضا هادي الساعدي ٢١٠.

(٧) ينظر: أسرار زيارة الأربعين/ الشيخ محمد السند ١٤.

(٨) ينظر: المصدر نفسه ٣٢.

(٩) الوافي / الفيض الكاشاني ١٤/ ١٥١٩.

(١٠) بحار الأنوار ٤٣/ ٢٦١.

(١١) الآية ٧ من سورة الحشر.

(١٢) من الآية ٣٣ من سورة التوبة، ومن الآية ٢٨ من سورة الفتح، ومن الآية ٩ من سورة الصف.

(١٣) من الآية ٧ من سورة الحجرات.

(١٤) من الآية ٣١ من سورة آل عمران.

(١٥) من الآية ٩ من سورة الحشر.

(١٦) الوافي ٥/ ٨٢٦.

(١٧) ينظر: زيارة الأربعين مظهر حب الله تعالى، مقال: الشيخ حسين كوراني، مجلة شعائر، ع٨١، س٧، صفر ١٤٣٨هـ- تشرين الثاني ٢٠١٦م، ص٦.

(١٨) مصباح المتهجد/ الشيخ الطوسي ٧٨٩.

(١٩) في رحاب الإمام الحسين يوم عاشوراء/ الشيخ محمد مهدي الآصفي ١٨٢.

(٢٠) ينظر: في رحاب عاشوراء/ الشيخ محمد مهدي الآصفي ٢٣٣.

(٢١) مصباح المتهجد٧٨٨.

(٢٢) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(٢٣) المصدر نفسه٧٨٩.

(٢٤) ينظر: ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت٢٢٥.

(٢٥) مصباح المتهجد ٧٨٩.

(٢٦) ينظر: في رحاب عاشوراء ٢٤٥-٢٤٧.

(٢٧) ينظر: عاشوراء الحدث والمعنى / الشيخ محمد مهدي الآصفي ١١٦-١١٧.

(٢٨) ينظر: المصدر نفسه ١٢٢-١٢٣.

(٢٩) ينظر: ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت ٢٢٨-٢٢٩.

(٣٠) ينظر: أسرار زيارة الأربعين ١٢-١٣.

(٣١) ينظر: ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت ٢٣٠-٢٣٤.

(٣٢) أسرار زيارة الأربعين ٢٠.

(٣٣) ينظر: المصدر نفسه ٢٣٤.

(٣٤) كامل الزيارات ٢٥٣.

(٣٥) ينظر: ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت ٢٣٧-٢٤٠.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. أسرار زيارة الأربعين، تقرير لأبحاث آية الله الشيخ محمد السند، بقلم: إبراهيم حسين البغدادي، ط١، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٣. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.

٤. ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت - مقاربات تأملية في اتجاه فهم الآخر/ محمد عبد الرضا هادي الساعدي، ط٢، دار الهدى، مؤسسة الإمام الحسن عليه السلام، (د.ت).

٥. الحدائق الناضرة، المحقق البحراني، تحقيق وتعليق وإشراف: محمد تقي الإيرواني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، (د.ت).

٦. زيارة الأربعين التاريخية: الإسلام محمدي الوجود حسيني البقاء، سعد خيون العبادي،

bic/ashuraa/8742 m.annabaa.org.

٧. زيارة الأربعين مظهر حب الله تعالى، مقال: الشيخ حسين كوراني، مجلة شعائر، ع٨١، س٧، صفر ١٤٣٨هـ- تشرين الثاني ٢٠١٦م.

٨. عاشوراء الحدث والمعنى، الشيخ محمد مهدي الآصفي، دار المعارف الحكميّة، بيروت، لبنان، ٢٠١٣م.

٩. في رحاب الإمام الحسين يوم عاشوراء، الشيخ محمد مهدي الآصفي، ط٣، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، دار التعارف، بيروت، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

١٠. في رحاب عاشوراء، الشيخ محمد مهدي الآصفي، تحقيق: مؤسسة نشر الفقاهة، قم المقدسة، (د.ت).

١١. كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، لجنة التحقيق، ط١، مؤسسة النشر الإسلامي، سنة الطبع: عيد الغدير ١٤١٧هـ.

١٢. المشي لزيارة الإمام الحسين عليه السلام وباقي الأئمة - دراسة في ضوء الموازين الفقهية، الشيخ حبيب عبد الله الساعدي، مجلة الإصلاح الحسيني، السنة الثانية، العدد ٦، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

١٣. مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ط١، مؤسسة فقه الشيعة - بيروت - لبنان، ١٤١١ - ١٩٩١م.

١٤. الوافي الفيض الكاشاني عني بالتحقيق والتصحيح والتعليق عليه والمقابلة مع الأصل ضياء الدين الحسيني «العلامة» الأصفهاني، ط١، طباعة أوفسيت نشاط أصفهان، مكتبة الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام العامة، أصفهان، أول شوال المكرم ١٤٠٦ هـ. ق ١٩ / ٣ / ٦٥ هـ. ش.